

الشيخ خاطر واجتمع في دير بسيم برجل من جماعة اخيه ابي نادر واستخبره عن حال البلاد وسأله عن والي صفة فاجابه انه الامير يونس كأنه لم يعلم انه الامير علي او اخطأ الناقل في الرواية وانه استتاب عليها الشيخ ابا نادر ومن ثم ذهب ابو خاطر الى دير القمر واخبر الامير يونس فركب ومعه كثيرون من عطاء الشوف الى الدامور واعطوا العلامة فاقترب مركب الامير من البر وشرع الناس بذهيوت اليد للسلام على نحر الدين والتمسوا منه النزول الى البر فابي الربان ذلك كأنه كان معظوراً عليه ان يسمح به ولما قضى الامير من الاجتماع وطره سافر فمر على مالطة فرحب به واليها واحلوا ترحاباً عظيماً وحيوه باطلاق المدافع ثم عاد الى بلده في ايطاليا  
جرجي بني

## عمران دمشق

تمهيد

التأليف في هذه الديار ضرب من شاق الأعمال لا يُعانيه الا من يُدانيه لضعف مادة العلم وكساد بضاعة الفضيلة وتباين المتارب والمذاهب وشدة الضغط والتعسف بحيث يضطر في الغالب من يجرأ عليه الى التقية يستعملها فيما يكتب على حين أنه لا تقية في العلم ولا خشية من الصريح بالحق الا في اقطار يُحظر فيها كل شيء خلا التمجيد والتدليس لي صديق من حملة العلم اوعز الي ان أنشي رسالة ألم فيها بما ثقل على دمشق النجباء من كثر وقيل وعلم وجهل فامتثل امره وانا أحاذر ان تطبق علي بالقول والنعل جملة فاه بها احد كتاب الفرنسيين وقد ألف كتاباً وهو في الخامسة والعشرين من عمره "إن هذا السن يستسهل العقل فيه حل المشكلات وأخذ الاشياء بظواهرها ويحل الخيال منه محل النقد والتنقيب ويعتقد المرء في الامور بغير قيد وهو سر لو انصف اهله ما كتبوا ولا ألفوا"  
واذ شرعت في العمل تيسر لي رغم المصاعب من مخطوط الأسفار ومطبوعها ما لم اتوقع الحصول عليه فاستأنست ببعض واقتنست من آخر وبما طالعت من المخطوط جانب من تاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ والضرورة اللامع لاهل القرن التاسع للسخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ والكواكب السائرة في اعيان المئة العاشرة للنجم الغزي المتوفى سنة ١٠٦١ ومختصر المدارس في تواريخ المدارس العلمي والاصل للشمسي المتوفى سنة ٩٢٧ ومحاسن الشام للبدري وحوادث دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ الى سنة ١١٧٦ لابن بديرو وكتاب ثمار المقاصد في ذكر

المساجد ليوسف بن عبد الحمادي كتبه سنة ٨٨٣ وتاريخ في ١٤٠ صحيفة منسقة القطع ناقص  
كراًساً من الاول ارنخ في مؤلفه منذ ابتداء العالم الى زمن قايتباي الجركسي سنة ٨٧٢  
وعليه حواش بقلم محمد الاكل بن مفلح المتوفى سنة ١٠١١ واظنه مختصراً من تاريخ ابن عساكر  
مع زيادة في آخره

وطالعت من المطبوع طرقاً من تاريخ الطبري المتوفى سنة ٣١٠ وتاريخ الكامل لابن  
الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ وتاريخ المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ وتاريخ ابن خلدون المتوفى سنة  
٨٠٨ وكتاب نخبة الدرر في عجائب البر والبحر لشيخ الزبوة المتوفى سنة ٧٢٧ وجغرافية ابي  
القدا المتوفى سنة ٧٤٣ وجغرافية المقدسي ومسالك الممالك للاصطخري والمسالك والممالك لابن  
خرداديد ومجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ وازهار الروضتين في اخبار الدولتين  
لاي شامة المتوفى سنة ٦٦٥ وعيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي أصيبعة المتوفى سنة  
٦٦٨ وتاريخ ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ وذيله لابن الكشي المتوفى سنة ٧٦٤ وخلاصة  
الاثر في تراجم اهل القرن الحادي عشر للحبي المتوفى سنة ١١١١ وسلك الدرر في اعيان  
القرن الثاني عشر للرازي المتوفى سنة ١٢٣٣ وخلاصة تاريخ العرب للمستشرق سيديليو المولود  
سنة ١٨٠٨ وروضة المناظر لابن الشيخة المتوفى سنة ٨١٥ واخبار الدول للقرماني المتوفى سنة  
١٠١٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ وتاريخ بغداد لعثمان بن سند البصري  
المتوفى سنة ١٢٥٠ وقطف الزهر لبوحنا ابكاربوس وتاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد  
وتاريخ سورية لجرجي بني الروضة الغناء لعمان القساطلي والكامل للبرد المتوفى سنة ٢٨٥ ورحلة  
ابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٧ وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف للعمري المتوفى سنة ٧٤٩  
وجهان نما لكتاب جلبي المتوفى سنة ١٠٦٢ ورحلة المستشرق فولني المتوفى سنة ١٨٢٠ وغيرها من  
الرحلات والتقويم والكتب الجغرافية والتاريخية المطبوعة بالفرنسية والتركية

هذه هي مأخذني وناقائل ان يقول مالك وللتعني في تصفح كل هذه الصحائف من اجل  
وضع رسالة في تاريخ مدينة واحدة . ولو حقق لعلم ان هذا الاحتفال وان جل لا يعد شيئاً في  
جانب ما يقاسيه الغريون من الامعان في التنقيب والتفتير وإغراق النظر في البحث الصغير  
فضلاً عن الكبير . وكمن غربي صرف شطراً من حياته في تأليف كتيب دون ان تعتبره  
ملة وسامة وكمن شرقي بدأ في عمل فعاودة ما ركز في طباع الشرقيين من قلة الثبات فوقف  
في منتصف الطريق وربما انقطع في اوله وما ذاك الا من الخلال الروابط وقلة الوسائط  
ولعل الناظر في هذا الوجيز يلاحظ معي ان سلسلة التاريخ انقطعت في اكثر القرون

خصوصاً في المتوسط منها فنازلاً وذلك لارتفاع العلم النافع من بين اظهرنا وعموم البلوى بالجميل  
المركب حتى زهد الناس في فن التاريخ وحسبوه افاصيص خرافية اُفقت للمستضعفين وباليتة  
رائج بينهم رواج كتب المجون والاضاليل

كُتبت بعض تواريخ في هذه القرون لكن الغرض والعوض اعلميا اصحابها فلم يدونوا الا  
ما يرتضيه الكبراه ويحظي بالزلفى عن انتسبوا اليه . ومن لنا بتاريخ عالم عاقل كالجزيري الذي  
اوتخ حوادث مصر في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر نستقي من مورده فان  
الحال في سورية كانت سواء والقطر المصري ولكن اخباره حُفظت وضاعت اخبارنا وما ذاك  
الا لان من تشموا بالعلماء تجافوا . وخرأ عن خدمة هذا الفن بعد ان كان اساطين الرجال  
في غير الزمن متولين امره يقتطعون سويعات من اوقاتهم العزيزة لينقلوا الاخبار تخافة ان  
تعيث بها الاغمار وتخفيها يد الاشرار من اجل ذلك خلفت اكثرهم في فهارس مصنفاتهم تواريخ  
باصحاب المتأخرون منا بالجان فغادرت ربوعنا غير آسفة اذ حلها الاغيار بحيل الاعيار وامسنا  
تقرأ في تراجم الاسلاف اسماء زهاء الف وخمسمائة كتاب في التاريخ ثم اذا عددنا ما في  
الايدي منها لا زناه يربو على الخمسين تاريخاً

هذا وقد ادبجت اثناء الكلام على عمران دمشق طرفاً من اخبار الدول التي تعاقبت على  
هذه الحاضرة لاني رأيتني مضطراً الى ذلك يقين ان حال البلاد متعلق بسياستها تعلق الارواح  
بالاشباح واغفرت هذا الاستطواد لنفسي علماً بان من لا تروقه انباه عاصمة عظيمة قديمة يقرأ  
على الاقل اجمالاً عن تاريخ الاسلام قد يتحصل منه على اثير يفنيه عن كثير

ولا اقول اني راعيت فيما كتبت الزمان والمكان بل اثبت كل ما ينبغي لمؤرخ ان يذكره  
واخترت في الاحابين التلميح بدل التصريح لجلاء الكلام على من يتدبر السياق والسياق .  
واعتمدت على التاريخ العجري في اكثر الروايات اذ لم اطمح الى تغييره كما اني لم اغير التاريخ  
الميلادي . وجريت على اسلوب مؤرخي الترجمة في تقسيمهم عمر العالم الى ثلاثة اقسام القرون  
القديمة والقرون المتوسطة والقرون الحديثة وبتدي الاول منذ عرف التاريخ الى سنة ٣٩٥م  
ابان انقسمت المملكة الرومانية الى شرقية عاصمتها القسطنطينية وغربية عاصمتها رومة ويوصله  
بعضهم الى سنة ٤٧٦ حين انقرضت تلك المملكة بتاتا . والقرون المتوسطة بتدي من انتهاء  
القرون القديمة الى ان فتح السلطان محمد الفاتح مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م و١٨٥٧  
والقرون الحديثة بتدي من استيلاء الفاتح على هذه العاصمة الى حدوث الثورة الفرنسية  
سنة ١٧٨٩ وما بعد ذلك بدعي بالتاريخ المصري

وتوخيت الاختصار ما أمكن فجاهت هذه العجالة ما ترى لا ما يجب ان ترى والنية معقودة ان تُسبح في الاجل ان اعيد فيها النظر ثانياً ازبد وانقص ريثما نثم لانفس امنية تسعى الى ادراكها من التحجيس والتعديل. وعسى ان لا يكون نصيبي من ذلك نصيب من يحاول تطبيق القضايا العلمية على الاصول الدينية. ورجائي ان افوز باجر من يضم الموزع ويلاّم صدع الموزع وان يتفضل رصفائي في خدمة العلم بما يعين لهم من الملاحظات مشفوعة بالتدقيق في الاستقراء لتقابل مني بالمنة والثناء

### (١) عمران دمشق في القرون القديمة

بالطعم والجهل كثرت شرور البشر فبدت الارض غير الارض وبضتها استبحر عمران وسعد انسان. قال اخذ علماء الافرنج كانت محبة الذوات في ابان اعتدالها مبدأ سعادة وعنوان كمال فلما اصبحت عمياء مختلة استحكمت سماً زعاقاً وغدا الطمع وهو ابن الجبل واليفد داعياً الى الشرور كلها التي دمرت الارض

وما من قانون الهي او وضعي الا وعرف الخلق طرق الخير والشر ودلهم على حدائق الازهار ومتألف العوسج بيد ان الارض لا تهمر باسبابها الطبيعية ما لم تشفع بالصناعية فقد غصت بلادنا مثلاً بخصب دائم وماء دائق وريح طيبة وفصول معتدلة فما اغنت غناءها بجانب ما كانت تستند اليه في رقيها من عدل وعلم فلما دالت دولتهما تنكر عمرانها وتفرق سكانها بالطعم والجهل تداعت اسوار نينوى والجنان المعلقة بيا بل وقصور تدمر ومعابد بعلبك وصروح القدس ودثرت اساطيل صور ومعامل صيدا وملاحة ارواد وآثار غزة وعقلاون وبصرى وجرش وعمان وبادت الزهراء والحمره وانقرضت الخضراء والشقراء وتقوضت الحدباء والزوراء وادبرت الشهباء والفيجاه

بالطعم والجهل جرى ما جرى لتلك الحواضر ونقد ما تفاخر به الارض من ناطق وصامت وعجاوات وجمادات وتمطلت هاتيك المرائي التي طالما اقلعت منها سفن الفينيقيين واليهود والبحرت سيف شواطئ شبه جزيرة العرب ماخرة العباب الى الخليج الفارسي والبحر الهندي لتقل من عمان والبحرين نواتج القارتين الاسيوية والافريقية من تبر وذهب وفضة ولؤلؤ واهجار كريمة وشال وعطور وبخور وصبر وعاج ومسك وعود وطواويس وقود. ومن تلك المواني كانت تسير المراكب المصرية والسورية لتوزع اوساقها على سواحل البحر المتوسط على حين انك لا تسمع بمثل هذه الحركة التجارية اليوم الا في مراسي اوربا واميركا ومنها واليهما ذاهبة جائية

لا جرم ان المتفلسف في طبائع الاكوان يعلق الاسباب على مسياتها فاذا رأى عمرانياً بين امة حكم انه كان بعدل وحرية او وحدة دينية او وطنية او سيف وحكمة او حسن قيام على تجارة وزراعة وصناعة واذا شهد العكس نسبة الى سوء ادارة وفساد اخلاق او ظلم وشقاق او حروب متتابعة ودول متعاقبة وجدالات اهلية . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصنفون

وبعد فقد كانت دمشق الفيحاء مصر الشام وامم مدنها وعروس المشرق لوقوعها في مركز تنتهي اليه السيارة المشرقية الى الانق المرفي وقد عظم شأنها بين المدن الحافلة العريقة في القدم الباقية في لوح الوجود فروى تاريخ القرون المتوسطة عن عظمتها السالفة عجائب ما كان المرء ليخالها الا مبالغاً فيها لو لم تشهد بها الآثار والاخبار . وتلت كسائر الامصار الحلو والمر من صروف الدهر فنالت حظها من بهاء ورفعة وانحطاط وضعة وأرابت شقوتها على ماداتها فعدت ايامها السود كثيرة في جنب ايامها الفرح المحجلة

واختلفت الروايات في سبب تسميتها واصل بانها بحيث اتسع مجال القول للوضايع والتفاصيل واقوالهم في الباب متخالفة ولا اختلاف علماء الطبيعة في عمر الارض والصحيح الذي ينبغي ان يعرف عليه ان التاريخ القديم غامض للغاية اللهم الا ما جاء من طريق معاصرنا من مؤرخي الزرنجة الذين يستدلون على الحوادث بانثار لا تقبل الانكار ولقد قسم العارفون بايام الناس تاريخ دمشق الى ستة ادوار كما يقسم علماء الجيولوجيا طبقات الارض الى ستة اقسام في الغالب ايضاً فكانت مستقلة نحو ١٤٥٠ سنة وبسط البابليون والفرس ايديهم عليها ٤١٧ سنة وظلت بها حكومة اليونان السابقين ٢٤٧ سنة وحكمها الرومان ٦٩٩ سنة وسادها العرب المسلمون ٤٤١ سنة وتملكها الاتراك العثمانيون منذ سنة ٩٢٢ هـ وما من اثر يدل على كيفية حكومتها ايام استقلالها وعمرانها في تلك العصور المظلمة . واذ سقطت مراراً في ايدي اليهود صيروها عاصمة سورية ولذا تكرر اسمها في سفر التكوين تحت اسم آرام وحكمها ملوك وردت اسماء بعضهم في التوراة لكن تصعب معرفة ازمانهم واحوالهم ودخلت دمشق في حوزة ملك اشور سنة ٧٤٠ ق . م فقامت ما قامت مملكة اشور من شقاء ونفاه ولم تكن هذه الحكومة في سورية مضره بالتجارة والثروة مع ما عرفت به من القسوة والهمجية . وخضعت دمشق للفرس نحو ثلثائة سنة ولما لم تكن حكومتهم تحسن الاستعمار انحط عمرانها وظلت نحو الف سنة تسكع في بيداء الصغار وتردى في مهاوي الدمار واقل اعمال الفرس فيها كما في تاريخ سورية حمل اهلها على الجلاء الى بلاد مادي وسكنى الاشوريين فيها

ولما نشب القتال بين داريوس ملك الفرس وهو صاحب سورية اذ ذاك وبين الاسكندر المقدوني سنة ٣٣٣ ق . م نهقر جيش داريوس وانهمزم الى ماوراء الفرات فاستولى الاسكندر على سورية وفلسطين ونصب احد رجاله واليا على دمشق والبقاع ولم يرد التاريخ عن دمشق شيئاً على عهد هذا الفاتح العظيم وقد كانت البلاد تنقاد اليه عفواً صفواً وتمشي امورها زهواً رهواً حتى اذا هلك انقسمت مملكته بين اربعة من قواده فكانت سورية لسوقس منذ عام ٣١٢ ق . م . وكانت الدولة السلوقية دولة حرب وشقاق فارتفع الامن في ظلها وفسد النظام واصبحت سورية باجمها حوالي سنة ٨٧ ق . م على شفا جرف هار من الاخطار اذ كانت رومية تطالبها بيسط نفوذها عليها ومصر تحاربها لتفهمها اليها والفرس يجتاحون البلاد بآسهم وشدة مراسهم حتى قررت لهم السيادة الادية عليها ولا تسلب عما نبتت به البلاد او اتخذ من ضعف الحال والرجال . ولاضطراب حبل المملكة السلوقية امتدت يد ملك ارمينية الى سورية وحكمها ١٤ عاماً الى ان جاءها الرومان سنة ٦٥ ق . م واستخلصوها منه . ويقول اغلب اهل السير من الافرنج ان الدولة الرومانية كفلت السوريين بالعدل فاحسنت كفالتهم مع ما كانت عليه في داخلتها من المشاغب والمتاعب حتى اذا شاخت دولتهم وغدا ملوكها لا يفكرون الا في نيل تاج الملك ولو ملؤنا بزعفران الدماء وقصاراهم ان يعيشوا في قصورهم مترفين وفي شهراتهم منغمسين بخرسهم الحجاب وتسرّب الى خزائنتهم اموال الجبايات انقلب الحال الى اقس مما كانت عليه من قبل . وبالنظر لتجافي هؤلاء الملوك عن التبصر في احوال رعاياهم كان اكثرهم يقتلون غيلة بيد قوادهم او جندهم او شعبيهم فراراً من سوء ادارة ائمتهم ومجاوريتها الحرية والعدل . وعلى هذا امتد دمشق بل فطرها في حما مسنون من الرق شأن كل مغلوب على امره لا يعرف اهلها غير الذلة والمسكنة يضاف اليهما ما يتأصل في اهل كل قطر يصعب بصيغة الحكومة المتقلبة من مكر ونفاق وفساد في العادات والاخلاق

هذا طرف من حال النجاء قبل الاسلام وقد خضعت للرومان مدة استيلائهم على سورية وما دار في خلالها الانتقاض عليهم . واذ كانت انطاكية عاصمة البلاد لم تلتحق دمشق شاوها في العظمة والشهرة بل تخلفت عما يؤهلها اليه مركزها الطبيعي وان تكن خلفت تدمر بعد سقوطها في عمران لم يبق منه الا الآن سوى احجار مبعثرة ونواويس مكسرة تدل مع هذا على ضخامة سلطانها واستيجار عمرانها واسماء رواها التاريخ فغابت عن العيان مسمياتها بنة كالبناة العجيب المسمى بالبريص وفيه يقول حسان

يسقون من ورد البريص عليهم  
يردى يصفى بالرحيق السائل

وقال وعلة الجرمي

فما لحم الغراب لنا بزاد ولا سرطان انهار البريص

قال ياقوت وخذان اليتان بدلان على ان البريص امم الفوطة باجمعها الا تراه نسب  
الانهار الى البريص وكذلك حسان فانه يقول يسقون ماء بردى وهو نهر دمشق من ورد  
البريص. على ان المسعودي يقول ان هذا البناء كان موجوداً في سنة ٣٣٢ هـ في وسط المدينة  
وكان يجري فيه الخمر في قديم الزمان وقد ذكرته الشعراء في مدحها للملك غسان من مأرب وغيرهم  
(٣) عمران دمشق في القرون المتوسطة

جاء المسلمون لفتح دمشق عام ١٤ هـ وكانت مخلة بجروب لم تنتفض بعد من عوارضها  
معتلة بامراض بادية للفاتح اعراضها وبعد حصار نازلها خالد بن الوليد من اليباب الشرقي حتى  
افتتحها عنوة فاسرع اهل البلد الى ابي عبيدة بن الجراح ويزيد بن ابي سفيان وشرحبيط بن  
حسنة وكان كل واحد منهم على ربيع الجيش فسألهم الامان فأمّتهم وفتحوا لهم الباب فدخل  
هؤلاء من ثلاثة ابواب ودخل خالد من الباب الشرقي بالقهر وكتبوا الى عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه بخبر الفتح فاجراها كلها صلماً

وهنا لا بأس بايراد طرف من احوال الدولة الاموية التي اتخذت هذه المدينة عاصمة  
جديدة للاسلام خصوصاً وانها كانت مبدأ دور ثان لهذه الامة باحداثها اموراً اوجبّت انقلاباً  
عظيماً اهمه تغير وضع الامامة وبالاشارة الى طور الدور الاول ينبغي التفرقة فاقول:

الاسلام جامعة عظمى لمصالح الناس دعا اليها الرسول العربي عليه الصلاة والسلام فكان  
فيه هادياً ومعيناً فلما توفاه الله شعر رؤسائه الامة بوجوب اقامة خليفة يخلفه في بث الدعوة  
وتوطيد الجامعة. وبعد خلاف نصروا بالاتفاق اصلحهم لهذا الشأن ابا بكر الصديق اماماً  
وخليفة وهو في سيرته المثلى على ما يعرفه من شم ربح التاريخ وكان من اجتهاده في حب  
المصلحة العامة ان انتخب خليفة يخلفه فعهد الى عمر بن الخطاب وهو على ما هو من التوفر على  
اعلاء الكلمة فقد لا يوجد جاهل بتلك السيرة العُمرية

وعرف عمران نصب الامام من حقوق الجماعة فلم يغبهم اياها حتى انه لما طعن قيل له  
يا امير المؤمنين لو استخلفت فقال "لو كان ابو عبيدة حياً لاستخلفتُ وقلت لربي ان سألني  
سمعت نبيك يقول انه امين هذه الامة ولو كان سالم مولى ابي حذيفة حياً لاستخلفتُ وقلت  
لربي ان سألني سمعت نبيك يقول ان سالمًا شديد الحب لله تعالى". الى ان قال "عليكم  
هوؤلاء الرهط وهم علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص

والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فليخاروا منهم رجلاً" الى آخر ما تواتر في قصة الشورى ولما اتجّب رؤساء الصحابة عثمان بن عفان تطالّ بنو امية الى غرض كان يحبك في صدورهم واعني به الرئاسة العظمى على المسلمين كافة وذلك لانهم راجعوا تاريخهم فعلوا انهم كانوا في جاهليتهم رؤساء وحب الرئاسة كما يعده علماء الاخلاق خلة ينزع اليها كل من كان له قديم يرجع اليه وتتم جرتومتها في الناشئين في مهادها حتى اذا اضاء لهم برق مشوا في سبيلها حينئذ شان الأمويين في خلافة عثمان فانهم ظنوا الامر امرهم لا امر الامة وطمعوا في الولايات والاعطيات حتى تقم عليهم من تقم وكان من التآلب على عثمان ما اشتهر امره ويقتله انفرجت على المسلمين نفرة ما سدّت ولن تسدّ

وبما ولي الشام معاوية بن ابي سفيان قدّم بني امية اتحد دمشق قاعدة لامارته لاسباب منها انها كانت متوسطة بين البلاد غزيرة الخيرات للجنود ملائمة لابهة الملك وعظمة السلطان . ثم اخذ في تسخيرها لامره وتمهيدها لذريته وتربية اهلها على الطاعة للروءساء والاستسلام للامراء حشدها باهل عصيته واستمال قلوب جند الشام وهم العرب المعنّون بقول المؤرخين اهل الشام لا اهلها الاصيليون من الروم فان هؤلاء ما كان لهم في المألة ناقة ولا جمل . وعلى اثر ذلك قام معاوية يطالب بدم الخليفة الثالث فكان ما كان من امر واقعي الجمل وصيفين وقيلام الطوارج ونشئت الكلمة بتلك العصبية على نحو ما رواه الطبري وابن الاثير وغيرها من المؤرخين المعتدلين ومن البديهي ان الحضارة بنت الترف والترف ابن الغنى والغنى من طبيعة الملك وملك بني امية كان يمتد من اقاصي جبال حملايا في الشرق الى اداني جبال الالب وسط فرنسا في الغرب وحضاً بهم كانت نسخة منقولة عن النرس والروم لان الحضارة تتقل في الغالب من الدول السالفة الى الذبول الخالفة . وقد طغى التاريخ بادلة ثبت انفاص بني امية في الترف انفاص لم يعده العرب الفاتحون

سار عمر بن الخطاب الى الشام اربع مرات الاولى على فرس والثانية على بعير والثالثة على بغل والرابعة على حمار بفرج معاوية للقائه وشارت الابهة تحفه وترفه فلما تقابلا تأثر عمر من هذا البدخ ونظر شراً الى معاوية قائلاً اكبروية يا معاوية . وفي رواية ابن عبد ربو عن يزيد عن ابيه قال ان عمر بن الخطاب لما قدم الشام ومعه عبد الرحمن بن عوف تلقاها معاوية في موكب ثقيل فجاوز عمر حتى اخبر فرجع اليه فلما قرب منه نزل اليه فاعرض عمر عنه فجعل يمشي الى جنبه راجلاً فقال له عبد الرحمن بن عوف اتعبت الرجل فاقبل عليه عمر فقال يا معاوية انت صاحب الموكب اتقا مع ما باعني من وقوف ذوي الحاجات يابك . قال نعم يا امير المؤمنين .

قال ولم ذلك قال لأننا في بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو ولا بد لهم مما يريد منهم من هبة السلطان فان امرتني بذلك اقت عليه وان نهيتني عنه انتهيت فقال لئن كان الذي نقوله حقا فانه رأي ارب و ان كان باطلا فانها خدعة اديب وما أمرك به ولا انهاك عنه  
 وذكر المبرد ان معاوية قدم على عمر بن الخطاب من الشام وهو ابيض الناس فضرب عمر يده على عضده فاقطع عن مثل الشراب او مثل الشرك فقال هذا والله اشاغلك بالحمامات وذوو الحاجات تقطع انفسهم حشرات على بابك . وروى ابن الاثير ان عمر لما قدم الجابية من نرى دمشق وهي ناحية بالجولان كان اول من لقيه يزيد وابو عبيدة ثم خالد عليهم الدباج والحريز فنزل واخذ الحجارة ورمم بها وقال ما اسرع ما رجعت عن رأيكم ايبي تستقبلون في هذا الزبي وانما شيعتكم منذ سنين وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم . فقالوا يا امير المؤمنين انها يلامعة وان علينا السلاح قال فنعم اذن وركب حتى دخل الجابية وعمر وشرجيل كأنهما لم يتحركا

هكذا كان الخلفاء الراشدون يعاملون عمالهم ليربوا بهم عن موارد الترف والسرف في حين كانوا ياول الشوء وصدور الفتح . ومن المسلم ان معاوية كان من السياسة والحلم على جانب واسع ثقات المؤرخين على انه ما فني يستميل رجالات قريش اليه منذ جرى في شغاف قلبه حب الإمارة وقوي فيه عرق الامل بنيلها . ومن ماله على تحقيق رغائب عمرو بن العاص ثرية وعامله على مصر والغيرة بن شعبة عامله على الكوفة وهما الداهيتان اللذان يقول فيها الحسن البصري - كما في السيوطي - انها اسدا امر هذه الامة لاحتيال الاول برفع المصاحف يوم صدين وتقرير الحكيم ولأن الثاني كان من الداعين لاخذ البيعة ليزيد فاعوز معاوية سرا الى ولاية الامصار ان يوفدوا الوفود اليزيدية له اعطاء العهد لابنه حتى استوثق له اكثر الناس وبأيموه والسيوف مصلنة على رقاب كبار الصحابة وقت اخذ البيعة كيلا ينبسوا بجلوة ولا مرة فتسلسل الملك في اعقاب سنة قيصر وكسرى بل كما قال عبد الرحمن بن ابي بكر سنة هرقل كما مات هرقل قام هرقل

ولما قضى على اهل الشام ان يكونوا بعد جيش بني أمية الخالص يقاثلون به من يناوئهم في القاصية والدانية لم يكن نصيب بلادهم من العمران كصيبهم من خدمة الاعراض . ومن جملة وصايا معاوية ليزيد قوله انظر اهل الشام فليكونوا بطانتك ووعيتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا احببتهم فاردد اهل الشام الى بلادهم فانهم ان اقاموا بغير بلادهم تغيرت اخلاقهم

لاجرم ان ملك بني أمية على الجد في قطع شافة الخارجين عليه لم يدم سوى احدى  
واتسعين سنة وتسعة اشهر او الف ومئة شهر تعاقب عليه اربعة عشر ملكا كلهم متشابهون في  
مسلكهم الا قليلا دَخَّ عنك افضلهم واعقلهم واعدلهم عمر بن عبد العزيز فانه لما شرع يتمكن  
من هدم ما بني من القواعد ليقوم باصلاح حقيقي دَمَّ اليه بعض أمرته من سقاء السم فذهب  
حميد الاثرو لم يلب الخلافة سوى ٢٩ شهرا

تبين مما تقدم ان الدولة الأموية لم تنضغ للعمران لانصراف وجهتها الى الفتوح وبث الدعوة  
وكبح جماع الخوارج والقدرية والازارقة والصفوية وغيرهم من

مضا قتلاً وتمزيقاً وصلباً تجوم عليهم طيرٌ وقوعٌ

قال احد حكماء السياسة لا سلطان الا بالرجال ولا رجال الا بالمال الا بعمارة  
ولا عمارة الا ببدل فعمران هذه الحاضرة على عهد تلك الدولة فضلاً عن انه نُقِلَ عن قبلهم  
نقلًا اعتوره القلب والابدال لم يكن في الدرجة التي يزعجها بعضهم اللهم الا ما كان من  
قصورهم ومعاييفهم في الضاحية التي يتعذر الآن تحديد مراكزها لان بني العباس لما اخذوا  
الملك من بني أمية هدوا قصورهم كانبشوا قبورهم

وقد انبثت قصور الامويين بجوار جامعهم الذي بناه الوليد بن عبد الملك ذاك المولع  
بشيد القصور المنجدة والصروح الممردة وهو صاحب البلاط الغريب . اما الخضراء وهي بلاط  
معاوية فقد كانت في الحي المعروف اليوم بمصبغة الخضراء من احقر احياء المدينة تكون عن  
شمال الداخل الى الجامع من باب جيرون اي الباب الشرقي السمي اليوم بباب النوفرة لوجود فوارة  
بقربها منذ مئات من السنين يؤيد ذلك ما رواه المبرد في كامله من آيات في بنت معاوية  
قال في مطلعها

صاح حياً الاله اهلأ وداراً عند اصل القناة من جيرون

عن بساري اذا دخلت من البيا ب وان كنت خارجاً فيميني .

وذكر ابن خلكان ان دار سليمان بن عبد الملك كانت موضع سقاية جيرون وذكر القرطبي  
ان عمر بن عبد العزيز لم يسكن في دار الخلافة بباب الخضراء وسكن شمالي جامع دمشق بمكان  
يعرف اليوم بمخاتاه الشيمصانية وقال ايضاً كانت دار هشام بن عبد الملك عند سوق الخواصين  
مكان تربة نور الدين الشهيد وقيل في الكلاسة . وروي ابن عساكر ان دار مسلمة بن هشام  
وكانت معروفة بدار اعاجور متصلة بالجامع من ناحية باب البريد ملاصقة دار ابي الدرداء  
( ستأتي البقية )  
محمد كرد علي